خطبة صلاة الجمعة 20/9/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

"شكراً"

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتَد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾, [البقرة: 110].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾, [المزمل: 20].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾, [البقرة: 197].

وقال: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾, [آل عمران: 115].

وقال جل من قائل: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾, [البقرة: 272].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((أيُّكم مالُه أحبُّ إليه مِن مالِ وارثه؟))**, قالوا: يا رسول الله، ما منَّا من أحدٍ إلا مالُه أحبُّ إليه من مال وارثه, قال: **((اعلموا ما تقولون!))**, قالوا: ما نَعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: **((إنَّما مال أحدكم ما قَدّم, ومالُ وارثه ما أخَّر))**, [أخرجه البخاري].

وعن أبي بَكْرَة رضي الله عنه أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أَيُّ الناس خير؟ قال: **((مَن طال عمره، وحَسُنَ عمله))**، قال: فأيُّ الناس شرّ؟ قال: **((مَن طَالَ عُمره، وساء عمله))**, [أخرجه الترمذي].

عنوان خطبة اليوم:

"شكراً"

أيها الإخوة:

كانت أحداث الهجرة من مكة إلى المدينة آلاماً ومشقَّات, وضيقاً وصعوبات: خروجٌ من الوطن الأمّ, وتركٌ للمال والمتاع, واختباء في غار، وسير في صحراء لاهبة, وطلبٌ من عدوٍّ حاقد, يعرض الجوائز المالية الكبيرة لمن يأتي بمحمَّد صلى الله عليه وسلم وصاحبه حياً أو ميتاً...

ومع كل هذه الشدائد والكربات كان في أحداث الهجرة حدثٌ جميل, وواقعةٌ مشرقة؛ إنها خيمة أمِّ معبد, حيث ارتاح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصّدّيق ومَن معهما في ظل خيمتها, وشَربا لبن شاتها, ووصفَته بعد مسيره أفضل وصف وأحلاه, فقالت:

(ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ, أَبْلَجُ الْوَجْهِ, حَسَنُ الْخَلْقِ, لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَة, وَلَمْ تَزْرِ بِهِ صَعْلَة, وَسِيمٌ قَسِيمٌ, فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ, وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ, وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ, وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ, أَحْوَرُ أَكْحَلُ, أَزَجّ أَقْرَنُ, شَدِيدُ سَوَادِ الشّعْرِ, إِذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ, وَإِنْ تَكَلّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ, أَجْمَلُ النّاسِ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ, وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ, حُلْوُ الْمَنْطِقِ, فَصْلٌ لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ, كَأَنّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدّرْنَ, رَبْعَةٌ, لَا تُقْحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ, وَلَا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ, غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ, فَهُوَ أَنْضَرُ

الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا, وَأَحْسَنُهُمْ قَدّا, لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفّونَ بِهِ, إِذَا قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ, وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ, مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ, لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْنِدٌ)[1].

نعم، كانت الهجرة شدَّةً, ولكن كان فيها حدثٌ جميل, وواقعةٌ مشرقة.

وكذلك كانت أحداث الهجرة إلى الطائف صعبةً وأليمةً, وشديدة وعسيرة: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عشيرته الَّتي فيها نشأ حين لم يجيبوه, ليبحث عن مجيب في عشيرةٍ ثانية, وإذا بهم يردُّونه أقذَع الردِّ وأسوأه, ويسلطون عليه أرذل القوم وأسفهه، وها هو صلى الله عليه وسلم يعود مُدمى القدم, كسير الجناح, يبحث عمَّن يؤويه ويحميه ليدخل مكة ثانية...

ومع كل هذه الشدائد والكربات, كان في أحداث رحلة الطائف حَدَثٌ مشرق, وواقعة جميلة, إنها قصَّة عداس, الفتى النصراني الذي أضاف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في البستان الذي يعمل به, وأطعَمَه من قطوف عنبه.

نعم، كانت رحلة الطائف شدَّة, ولكن كان فيها حدثٌ جميلٌ, وواقعة مشرقة.

ونحن -أيها الإخوة- وإن كنا في هذه الأزمة التي نعيش -والتي نرجو الله تعجيل كَشفِها بلطفه- نعاني ضيقاً وألما، ونرى شدَّة وكرباً، غير أننا نسمع ونرى -بين الحين والآخر- حوادثَ مشرِقة, ووقائع منيرة، أعرض عليكم اليوم صوراً منها, لنقول لفاعليها شكراً، ولنُعليَ لهم ذكراً.

فإن الجميل ينبغي أن يُشهَر ويُعلَن, كما ينبغي للقبيح أنْ يُخفى ويُدفَن.

الصورة الأولى: استشهدَت زوجتُه تحت أنقاض بيتها, في طرف من أطراف المدينة قبل ثلاثة أشهر, تاركة زوجاً مفجوعاً بعروسه, وطفلاً لم يتمَّ السَّنة، ووراءَهما أباً وأماً, لم يأذن القدر لهما بوداع ابنتهما قبل أن تسافر نحو السَّماء.

---

[1](?) أبلج الوجه: أي مشرقه, لم تعبه ثجلة: أي ليس فيه عيب من ضخامة البطن, الصعلة: دقة الرأس والعنق, القسيم: الجميل, الدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها, والوطف: طول شعر الجفن, في صوته صحل: أي بحة, وفي عنقه سطع: أي طول, أزج: دقيق الحاجبين, أحور: الحور: شدة سواد العين في شدة بياضها, أقرن: أي مقرون الحاجبين, ولا تشنؤه من الطول: أي لا يبغض لفرط طوله, المحفود: هو الذي يعظمه أصحابه ويسرعون في خدمته, والمحشود: الذي يجتمع إليه الناس, ولا يفند: أي لا يكثر في لوم صاحبه.

كان أنس كلَّما نظر إلى ولده أشفَق عليه؛ رضيعٌ بلا مرضع, وطفلٌ بلا أمّ، ولئن فَهِم الكبير الأزمة والابتلاء, فأنَّى لرضيعٍ أن يفهم المعنى إن جاع وبحث عن صدر أمه فلم يجده؟!

عَجِبَ أنس من والد زوجه الشهيدة ووالدتها وهما يبحثان له عن عروس جديدة, تؤنس وحدتَه وترعى ابنه، وفعلاً وجَدا، ودفعاه للإسراع في الزواج.

والذي يزيدك عجَباً ويدهشك أن الذي كان حاضراً يوم العقد الجديد, وكان يمازح الحاضرين ويسامرهم, ويشدُّ على يد العريس ويضاحِكه... والدُ الزوجة الأولى الشَّهيدة .

شكراً لك أيها الأب الفاقدُ ابنتَه، تعين صهرك ونسيبك، وتخفف همَّه وتشدُّ أزرَه.

جزاك الله خيراً وأنت تكظم ألمك, وتبتلع غصَّتك, وتتحامل على جرحك, لتضمِّد جراح الآخرين.

على الله أجرُك ومنه مَثوبتُك، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، [البقرة: 197]. وهذه الخطبة تقول لك: "شكراً".

الصورة الثانية: مرت أيامٌ خمسة على بَدء العام الدراسي، وبدأ المعلِّمون يطلبون الدفاتر والأقلام والكتب من الطلاب، ولاحَظَ الناس الغلاء الكبير في أسعار حاجيات المدرسة، فكَّر واحدٌ من الموجِّهين في ثانوية شرعيةٍ بالأمر, باحثاً له عن حلٍّ، فاهتدى للآتي:

طلبَ من عدد من الطلاب المجتهدين في الصف السابع العام الماضي أن يأتوه بدفاترهم القديمة, فجاؤوه بها، فراح يعدُّ الصحائف التي كَتب عليها الطلاب، فوجد مثلاً: أنهم كتبوا في مادة الديانة عشرين ورقة, وفي التاريخ ثلاثين, وفي العلوم أربعين, وفي اللغة العربية أربعين...، وهكذا أحصى الموجِّه جميع ما كتب الطلاب على دفاترهم، فوجدها أربعَمائةِ ورقة، فطلب إلى الإدارة أن يشرح للمدرسين الأمر؛ بحيث يُطلَب من كلِّ طالب في الصف السابع أن يشتري أربعةَ دفاتر –أو خمسة–، كلٌّ منها مائة ورقة، ويكون الدفتر الواحد مشتركاً لعددٍ من المواد، وبذلك يشتري الطالب أربعة دفاتر –أو خمسة– بدلاً من شراء اثني عشر دفتراً.

ثم فَعَل الموجِّه مع الطلَّاب في سائر الصفوف ما فعله مع الصف السابع، وأخبر بذلك مَن يعرف من الموجهين في المدارس الأخرى، وهكذا نما الأمر لي لأعلنه أمامكم, وليصل إلى شريحة أكبر من المعلّمين والموجّهين والمديرين.

شكراً لك يا أيها الموجّه, سنَنْتَ سُنَّةً حسنة، لك -بإذن الله- أجرُها, وأجرُ مَن عَمِل بها، تهوّن على طلابك وأهليهم في زمنٍ كَثُرَت فيه المشاق، وتَحمِل مع الناس همومَهم, وعندك مِن أحمال الهمِّ ما يكفيك ويزيد، نشعر بهمّك ونقدّر تعبَك وعلى الله أجرُك، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، [محمد: 35]. وهذه الخطبة تقول لك: "شكراً".

الصورة الثالثة: عقَد شابٌّ على فتاة, واتّفقا على أن يكون عرسهما بعد عام، كان يهيّئ سكنَ الزوجيَّة ويكابد ما يكابد في طلب الكسب الحلال، وخلال العام تضرَّرَت منطقة سكن أهله ومنطقة سكنه، وخرج مع أهله يبحثون عن مأوى، سكنَت العائلة في بيت جماعيّ مع عدد من الأسَر المتضررة الأخرى، وهو الآن في حيرة كبيرة:

أينَ سيَسكُن مع زوجِه؟ ومتى سيُقيم عرسَه؟ وهل ستنتظر العروسُ وأهلُها؟

عَلِم صديقُه بالأمر, فأعلَمَه أنه عاقدٌ على فتاة, وقد جهَّز داراً ليسكنها مع زوجته القادمة بعد ستة أشهر، وأعلمَه أن الدار جاهزةٌ تماماً، وأنه سيقدِّمها له هديَّة ينتفع بسكناها أربعة أشهر مع عروسه, ثم يُرجِعها له.

شكراً لك يا أيها الصديق, تمتصُّ همَّ المهمومين وحنَقَهم وقَهْرَهم, وتحاول مسح جراحاتهم وكفكفةَ دموعهم, ترجو بذلك وجهَ الله.

إن كان الخلق لم يعرفوك فإنَّ الله قد عرفك، وإنْ لم تكن تحبُّ أن يَعلم الخَلق بما فعلتَ فإن الخالق يأبى إلا أن ينشر ذكرَك بين النَّاس.

من يفعل الخير لا يُعَدم جوازيَه لا يذهبُ العرف بين الله والناس

وهذه الخطبة تقول لك: "شكراً".

الصورة الرابعة: تعلمون أنه من بين الأسَر المتضررة التي خرجت من بيوتها أسَر لها مكانة اجتماعية, ومنزلة دينية أو دنيوية، اجتهدَ بعض الإخوة الكرام أن يبحثوا عن هؤلاء, ليُسرعوا في لمِّ شعثِهم, وتفريج كرباتهم, متذكِّرين الأثر القائل: (ارحموا عزيزَ قومٍ ذلّ, وغنيَّ قومٍ افتقر, وعالماً بين جهَّال)، فقدَّموا لهم بيوتاً ليسكنوها في أرقى أحياء المدينة وأنفَسها، محافظين على مكانة هؤلاء ساترين كسرهم.

شكراً لك يا أيها الأخ, تُواسي المصابين, وتستر على من لو كُشِف سترُه لمات هما وكَمَداً، ندعو لك بدعاء سفَّانة بنت حاتم الطائي رضي الله عنها لما منَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وأكرمَها -لأنَّه كان صلوات ربي وسلامه عليه يحبُّ إكرام الكريم- فدعَت له، وقالت: (أصاب الله بمعروفك مواضِعَه، ولا جعل لك إلى لئيمٍ حاجة، ولا سلَب نعمةَ كريمٍ إلا وجعلك سبباً لردّها عليه).

وهذه الخطبة تقول لك: "شكراً".

الصورة الخامسة: كثيرون ممَّن يؤجِّرون بيوتهم بأجرة زهيدة، وكثيرون الذين يقدِّمونها من دون أجرة، "فشكراً".

الصورة السادسة: مَن قدَّم فندقَه كاملاً, تنتفع بغرَفه أسَر متضررة لستة أشهر ويزيد، وقدَّم معه وجبة طعام لكلِّ أسرة كلَّ يوم, "فشكراً".

الصورة السابعة: الأسَر المتضررة التي تحمل معها في سكنها الضيِّق أسَراً متضررة أخرى, يقاسمونهم الزاد والمأوى, "فشكراً".

الصورة الثامنة: الشباب والفتيات الذين يمضون حاملين وجبات الطعام والكساء لأسر محتاجة في مناطق خطرة، حملوا أرواحهم في اليمين, وطعام الناس في الشمال, "فشكراً."

الصورة التاسعة: الأطباء الذين أبَوا سفراً حفاظاً على صحَّة مرضى البلد ورعايتهم، والأطباء الذين سافروا وهم يفكِّرون كيف يدعمون مَن بقي مادياً ومعنوياً؟ "فشكراً".

الصورة العاشرة: المسافرون الذين لم يتركوا بيوتهم بعد سفرهم فارغةً, بل استثمروها عند الله, فقدَّموها لأقاربهم أو أرحامهم, ينتفعون بها ريثما يعود أهلها, "فشكراً".

وهكذا –أيها الإخوة– تكثر الصور المضيئة في هذه الأزمة الأليمة، لتقول: إنَّ مَن تربَّى على البرِّ لا يصدُر عنه إلا البرّ وإن كان الشرُّ كثيراً، وإنَّ مَن تربى على الخير لايُخرِج إلا خيراً وإن كان الضِّيق كبيراً.

لكلِّ هؤلاء وأمثالهم من أهل الخير والبر, كانت هذه الخطبة: "شكراً"، وجزاكم الله خيراً.

ولكم بشارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنكم خيار الناس, في زمن امتاز فيه الطيب من **الخبيث**.

روى الإمام الترمذي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَقَفَ على ناس جُلُوس، فقال: **((أَلا أُخبركم بخيركم مِنْ شَرِّكم؟))**, قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلَى يا رسول الله، أخبِرنا بخيرنا من شرنا، فقال: **((خيركمْ مَنْ يُرجَى خيره، ويُؤمَن شرّه، وشرّكم من لا يُرْجَى خيرهِ، ولا يؤمن شره))**.

والحمد لله ربِّ العالمين